البحث الخامس

الصابئة المندائيون وسر البقاء

كثير من الأقوام والديانات عبر التاريخ ظهرت، وبعد ردحٍ من الزمن اختفت ولم يبقَ منها إلا الذكر... وديمومة أي دين أو أي عقيدة هناك أسرار لبقاء هذه العقيدة خلال هذه الحقب التاريخية الطويلة، وأننا هنا نسأل: أين البابليون؟ أين الآشوريون؟ أين الفراعنة؟ أين الرومان؟، حضارات سادت ثم بادت، رحم الله شاعرنا معروف الرصافي حين أنشد قائلاً:

هي الأخلاق تنبت كالنبات إذا سقيت بماء المكرمات

فإذا كانت العقيدة ربانية منزلة على قوم أمناء صادقين يؤمنون بها إيماناً عميقًا، أناس مسالمين يحبون كل الناس ويلتزمون بوصايا خالقهم ويحبون لغيرهم ما يحبون لأنفسهم، يبارك الحي العظيم بهم وبذريتهم ويبقيهم على مر الأزمان والعصور لا زوال لهم مهما اشتدت الخطوب عليهم، لإيمانهم وتمسكهم بالناصوراثا وبتعاليم الحي العظيم، رب الناس أجمعين.

إن المعتقدات والعقائد الدينية صنعت التاريخ الإنساني عبر الأزمنة والعصور، وهناك أمم تبنت عقائد ازدهرت بها هذه الأمم، وأمم أخرى بسبب عقائدها المادية اندثرت، العقائد وجدت منذ وجود الإنسان أي من زمن آدم وحواء رأسا السلالة البشرية، كانت العقيدة موجودة وكان هناك وجود للإيمان، وبسبب تكاثر البشر وانتشارهم وتعدد الأنبياء والرسل، تعددت هذه العقائد، وتبقى العقائد الروحانية عميقة الجذور.

الطائفة المندائية سر البقاء :

الطائفة المندائية من أقدم الطوائف الدينية الموحدة؛ وخلال تاريخها كما أكد مؤيد مكلف في مقال له؛ تعرَّض أبناؤها لشتى أنواع الاضطهادات والمضايقات وانصبت عليهم أنواع المِحن ، فتشتتوا وانحسروا عن أماكن عديدة كانوا يسكنونها ، واضطروا للهجرة مرارًا طلبًا للأمن والسلامة ، واستقر بهم المقام أخيرًا في بطائح جنوب العراق وعربستان.

وكان المندائيون قد اتخذوا لهم لغة دينية هي اللغة المندائية المتفرعة عن الآرامية الشرقية ، مما ساعدهم على التكتم وتدوين كتبهم الدينية وتعاليمهم بها ، ونظرًا لحبهم للسلام والحرية فقد ابتعدوا عن الحروب والنزاعات السياسية وعاشوا على شكل مجموعات قرب مصبات الأنهار وعلى شواطئها ، منصرفين لإقامة شعائرهم الدينية...

ولقد ظهرت بعد المندائية وعاصرتها أديان عديدة ، منها ما اندثرت وزالت ، ومنها ما تزال حية تؤمن بها شعوب الأرض ، ولقد كان الدين المندائي تبشيريًا منذ ظهوره ، ثم أصبح مغلقًا على المندائيين بسبب عمليات التنكيل والاضطهاد التي مورست ضدهم ، فأصبحوا جراء ذلك أقلية صغيرة محصورة ضمن مناطق معينة ، ولقد تناول المؤرخون المعاصرون لهم من الطوائف الأخرى أمور دينهم بسطحية وبدون تعمق أو دراسة ميدانية شاملة ، وبتشويه وتحامل في بعض الأحيان...

ولكن السلطات الإسلامية ومنذ البداية عاملتهم معاملة أهل الذمة ، وبهذا عاشوا بأمن وحرية وسلام في ظل الدولة العربية الإسلامية طيلة قرون عديدة ، ثم طالهم من الأذى ما طال العرب والمسلمين جميعًا على يد التتر عام ١٢٥٨م ، حين اجتاحوا بغداد ودمروها ، فهاموا على وجوههم فارين منها بعد سقوطها ، وتشتت الناجون في كل مكان...

وظن الباحثون أن هذه الطائفة قد اندثرت وزالت كما زالت أديان قبلها وطوائف ثم تبين في العصور الحديثة، وبعد احتكاك الرحالة الغربيين بهم في البصرة وغيرها من مناطق جنوب العراق وإيران ؛ أنهم لازالوا يعيشون ضمن مجموعات دينية عديدة، فكتبوا عنهم وشاع خبرهم لدى المهتمين بتواريخ الأديان فزارهم عدد من المستشرقين في أوطانهم، واحتكوا بهم وبرجال دينهم، واطلعوا على مدوناتهم، وقارنوا دينهم ببقية الأديان، فتيقنوا أنهم طائفة دينية قديمة مستقلة بدينها وشؤونها وتقاليدها، ثم ألفوا عنهم بحوثًا عديدة كما اهتم بهم في العصر الحديث كتاب عرب، وكانوا منصفين في التحدث عنهم، ثم برز من أبناء الطائفة باحثون وكتاب أوضحوا الكثير من المزاعم المغرضة التي ألصقت بهم، كما تطرقوا إلى أسباب بقائهم وصمودهم رغم عوادي الزمن.

ومن هؤلاء الكتاب ابن الطائفة المرحوم غضبان رومي، الذي أورد الأسباب التي رأى أنها قد ساعدت على بقائهم وديمومتهم، فقال : (إن سبب بقاء المندائيين والدين المندائي يعود إلى أنهم قد عاشوا في هذه الأوطان منذ أقدم الأزمنة، متمتعين بكامل حريتهم بين إخوتهم العرب، وكذلك بسبب صلة أدبياتهم وكتبهم الدينية ولغتهم وأبجديتهم باللغات السامية الحية، وبسبب صلة القربى بين النبيين يحيى بن زكريا والسيد المسيح عليهما السلام، وكذلك بسبب ورود اسمهم في القرآن الكريم ضمن المؤمنين الموحدين، ولأنهم مارسوا طيلة تلك الحقب حرفًا يدوية يحتاجها مجاوروهم، وكذلك بسبب وحدانية دينهم وطيبة أخلاقهم، وملائمة البيئة والمناخ لطقوسهم وغذائهم).

هذا ما أورده الأستاذ غضبان رومي، ولكننا ارتأينا التوسع بالموضوع، والتحدث عنه بشمولية أكبر، وإيراد أسباب أخرى لبقائهم منها:

١- إن المندائيين هم من أبناء النور، المناقض لعالم الظلام، بكل شروره وآثامه، فهم متمسكون بذكر الله، وبكل الفضائل، وأن ديانتهم راسخة بالحق بأمر الحي الأزلي، وكل شيء يترسخ بالحق يظل راسخًا لا يزول.

٢- أن الحي الأزلي هو الذي حماهم بحكمته، فكلما اشتدت بهم الأزمات وقسا عليهم الزمان؛ هيأ الله لهم أحد أنبيائهم، فجمع شتاتهم وجدد عزيمتهم ومنحهم القوة والثبات، كما فعل سبحانه فأرسل إليهم أخر أنبيائهم يحيى بن زكريا (ع)، فأحيا دينهم وقوى عزائمهم وخلصهم من عبودية أعدائهم.

٣- إن المندائيين هم السباقون للإيمان والوحدانية، فلا عجب أن تترسخ عقيدتهم ولم تؤثر عليهم كل الدعوات الأخرى.

٤- إن سبب بقائهم يعود إلى قوة مبادئهم الدينية وصوابها وشدة تمسكهم بها وارتباطها بضمائرهم ووجدانهم، ولهذا استماتوا في التعلق بها والدفاع عنها، باذلين من أجلها أرواحهم وأموالهم.

٥- بسبب الملاذ الآمن الذي عاشوا فيه في مناطق البطائح ذات الموقع الجغرافي المتميز البعيد عن سطوة أعدائهم.

٦- بسبب تمسكهم بمبادئ السلام وحب الإنسانية وابتعادهم عن كافة الصراعات التي حدثت لأنهم لم يسعوا إلى تملك الأراضي أو الاستحواذ على أملاك الغير، وبهذا تجنبوا الاحتكاك مع غيرهم.

٧- بسبب ميلهم للرحمة وحب العلم، فتراهم في كل الظروف رحماء، ينفرون من العنف والأذى وسفك الدم، أما حبهم للعلم والمعرفة فقد جعلهم يفيدون أنفسهم والآخرين، وبهاتين الصفتين أوجدوا أساسًا للحضارة والتقدم.

٨- إن قلة عدد المندائيين أدى إلى تراصهم وتماسكهم، مما ولَّد عندهم فيضًا من الحب والمودة والتعاطف، لأنهم أحسوا أن مصيرهم واحد، ولهذا تعمق الإيمان في نفوسهم.

٩- إن ذكاء المندائيين وحسن تصرفهم أكسبهم القدرة على التكيف مع محيطهم والتأقلم مع مختلف الأقوام التي جاوروها، مما جعل هؤلاء يولونهم ثقتهم ومحبتهم واحترامهم.

١٠- كان المندائيون وبسبب تحدثهم جميعًا بلغتهم الدينية الخاصة، والتي كانوا على دراية وإطلاع على كافة نصوصها ومفرداتها؛ يفهمون دينهم ويفسرون ما ورد في كتبهم الدينية، ولهذا حافظوا على تلك الأفكار وتمسكوا بها.

١١- بسبب بسالة وثبات رجال دينهم طيلة هذه العصور، ومحافظتهم على جوهر الدين ونقاوته من كل انحراف أو ارتكاب أخطاء، كما قاموا باستنساخ الكتب الدينية بأيديهم بدقة وبدون تحريف، وقدموا حياتهم أحيانًا فداءً لدينهم وطائفتهم وعقيدتهم، فهذا الاستبسال حافظ على الروح المندائية الصادقة.

١٢- لم يكن للمندائيين طيلة تاريخهم دولٌ بالمعنى المعروف بل عاشوا دائمًا شبه منعزلين أو في ظل حُكَّام أقوياء أمناء، أو في ظل دول قوية عادلة ترعى مصالح الشعوب وتحترم أديانها.

١٣- المحافظة على نقاوة الدم والسلالات، ويتمثل ذلك بعدم تزاوجهم مع الغرباء واقتصارهم على أبناء ملتهم، مما أدى إلى محافظتهم على سماتهم المميزة طيلة تلك القرون.

١٤- احترافهم لمهن خدمية تخص المجتمع الزراعي الذي عاشوا فيه، فكان هذا المجتمع بحاجة ماسة إلى هذه الخدمات إضافة لما لمسه فيهم من إخلاص وإتقان وصدق في المعاملة.

١٥- إن أقوى عنصرين صانا المندائيين والديانة المندائية هما الإيمان العميق والمعرفة الشاملة للحياة، وهما السلاحان القويان لدحر قوى الشر، فشعارهم كان (يا آهي اد كشطا زينخون ناصروثا)، أي (يا أخوة الحق سلاحكم الإيمان والمعرفة).

لكل هذه الأسباب أولى الحي الأزلي هذه الشريحة من الناس عنايته الإلهية، فصانها وحفظها بقدرته، كما منحها خصائص مميزة، استطاعت بها مسايرة كل الظروف والأحوال، والتصرف بحكمة من وعي بالحقيقة وتذرع بالصبر وتشبث بالحياة حتى نجح في صيانة دينه وتراثه.

الأخلاق والقيم المندائية :

كتب الأستاذ صبحي مبارك مقالاً قيمًا عن الأخلاق والقيم المندائية التي كانت سببًا أساسيًا لديمومة طائفة الصابئة المندائيين ، فقال إنه من أسباب ديمومة طائفة الصابئة المندائيين تمسكها بدينها وقيمها وأخلاقها المندائية المستمدة من تراثها وتاريخها العريق ، والذي جعلها في نظر أخوتنا أبناء الطوائف الأخرى مثار احترام وحب وتسامح.

لقد كانت الطائفة ومازالت تعتز بوطنها الأم العراق وتدافع عنه متشربة بالمبادئ الوطنية ، وكانت تقف مع جموع الشعب بحزم ضد الغزاة المعتدين رغم الإغراءات كما هو واضح من خلال الوثائق ، المندائيون جزء لا يتجزأ من الشعب العراقي ، يعيشون مع إخوانهم أبناء الشعب بسلام ووئام ، يمارسون طقوسهم الدينية بكل حرية ، وعندما تمعن النظر في تاريخ هذه الطائفة تجد أبناءها منحدرين من أناس بسطاء متواضعين ، جاءوا من القرى والأرياف ، والمدن الصغيرة، حيث كانوا يمارسون مهن بسيطة كالحدادة والنجارة... الخ.

كذلك مارسوا التجارة بأسلوبها البسيط وباشروا وتعلموا الصياغة من أبوابها الصغيرة ، وقد بدأوا بصياغة الفضة مع المينا وتصليح المصوغات الفضية والذهبية ، وكان البعض يتجول في الأقضية والنواحي والقرى حاملاً عدته لتصليح ما يعرضه الزبائن.

لقد كانت حياتهم الاقتصادية بسيطة جعلتهم يعيشون حد الكفاف ، الأمر الذي جعل البعض مضطرًا إلى السفر والعمل خارج الوطن في مصر ، إيران ، الهند... الخ.

وكانوا يعيشون ضمن تجمعات سكانية يربطهم الحب والاحترام ، ونتيجة لتعاليم الدين وتربية آبائهم وأجدادهم ، كانوا أناسًا متواضعين ، معروف بأنهم أناس طيبون مؤمنون بالله الحي الأزلي ، متعاونون ومتكاتفون يساعدون بعضهم البعض ، ويعقدون المجالس ويشاركون إخوتهم في المجتمع السراء والضراء.

ولكونهم يحبون العلم والمعرفة، فقد زجوا بأبنائهم في المدارس والمعاهد العالية منذ تأسيسها، وتخرج فيها المعلم والمدرس والمهندس والطبيب والضابط ونشأ منهم العالم والأديب والشاعر والكاتب...

لقد كانوا دائمًا وفي مجال مواقعهم الوظيفية مخلصين في عملهم يشار إليهم بأنهم مثال الإخلاص والنزاهة، وهذا نابع من أخلاقهم وقيمهم، وبعد التطور الاقتصادي والذي شملهم أيضًا أخذ البعض منهم يهاجر إلى المدن الكبرى، ومارسوا مهنة الصياغة التي اعتبرت سمة من سماتهم، إلا أن هذه المهنة ورغم نواهي تعاليم الدين دفعت البعض إلى الابتعاد عن القيم والأخلاق المندائية، حيث تطبعوا بعادات وأخلاق غريبة.

فقد كان حب المندائي لأخيه المندائي نابعًا من أصالته وعادات أهله، وكان المندائي لا يتجاوز على أخيه ولا يرميه في التهلكة، المندائي مفعم بالحنان والتسامح والتواضع لا يتعالى على الآخرين من أبناء طائفته، المندائي يفرح لأنه جاء من طائفة بسيطة متواضعة تحب الخير للجميع، ولها مساهمات كثيرة وأصدقاء في كل مكان.

إلا أن البعض وهو قليل؛ نسي تاريخه وتاريخ أجداده، نسي كيف كانوا أهله، والبعض عندما يرى وهو مخطئ أنه وبسبب ثروته قد أصبح فوق أبناء الطائفة ينظر إليهم من الأعلى، ونسي أيضًا أن الطائفة أرضعته القيم والأخلاق المندائية، وعلمته الابتعاد عن المحارم، والأفعال التي يرفضها المجتمع، الابتعاد عن الكره والحقد وعن العداوات الشخصية، فالمندائي هو ذلك الإنسان الطيب الذي يرعى حقوق الآخرين ولا يحب الاعتداء، وهو ملتزم دائمًا بأخلاقه ومثله العليا لأنها صفات الخيرين من الناس.

مفهوم الصدق والإخلاص في العقيدة المندائية :

{رأس صدقك لا تفسد أقوالك ولا تحب الكذب والخداع ، رأس صلاحك أن تصلح نفسك وتقبل أقوال الحكماء}... كنزا ربا تعاليم يحيى...

تمنح العقيدة المندائية الصدق والإخلاص أسمى المراتب الدينية ، فالمختارون الصالحون هم باهرو الصدق ، وهم أعلى درجة من الناصورائين ، ومن أقوال نبينا يحيى مبارك اسمه للناصورائين (إذا امتلكت القدرة أيها الناصورائي فكن المختار الصالح الذي اختير لكل الأعمال ، كالملك الذي وضع التاج على رأسه وأشعل حربًا في عالم الشرور ، وبحر الشر ومريديه). كنزا ربا- حكم يحيى

وللصدق معانٍ كثيرة، أجملها ستة؛ وهي الصدق في القول، والصدق في النية والإرادة، والصدق في العزم، والصدق في الوفاء بالعزم، والصدق في العمل، والصدق في تحقيق مقومات الدين كلها... فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صادق، (فيا نفس دعي ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة) ، فحقيقة الصدق أن تصدق في مواطن لا ينجيك منها إلا الكذب.

فمن أقوال نبينا يحيى مبارك اسمه : (المرء المتلون يكسوه الظلام ، ويغطى بحجاب أسود ينتعل الجمر ومن جانبيه الجن والشياطين ، ويبقى قابعًا في دار العقاب إلى يوم الدين ، أيها المندائيون كونوا كالمختارين الصالحين الذين يشهدون للحي العظيم ، لا تعملوا أعمالاً سيئة ولا تنحدروا إلى موطن الظلام ، وردوا معي يا إلهي من رحماك لا تجافينا).

وأكد نبينا أيضًا على قول الحق وشهادة الحق، فكان يحذر وينصح ويعلن، إذ كان يقول: (انتبهوا أبنائي إذا طلبتم للشهادة ، لا تشهدوا زورًا وظلمًا يدان أمام الله الذي يحاسب كل العالم بقدر أعماله وثوابه ، فكل من وضع يده وقدمه على الحقيقة وتراجع عن قول الحق يُدان ويكون حسابه عسيرًا ، أبنائي لا تظنوا أن العالم الذي تذهبون إليه جالسًا للحساب والخلاص ، وإنما يجلس

للحكم والتثمين العظيم ، بحيث كل يوم يمر عليكم يخزن فيه ، وسوف يُختار من جهر بالطيبات ليرتقي ، أما العاري فسيحكم ويدان ، ويل للفارغ الذي يقف عاريًا أمام بيت الحساب... دراشا اد يهيا).

أما الإخلاص فيه يتم الإيمان للمؤمنين ، فهو باب الأعمال ، فالعمل بغير إخلاص كالجوز بلا لباب ، وكالجسم بلا روح وكالشجر بلا ثمر وكالغيم بلا مطر ، وكالمولود بلا نسب وكالبذور بلا نبت ، فالجوز بلا لباب لا يصلح إلا للعب الأطفال ، والجسم بلا روح لا يصلح إلا للدفن ، والشجر بلا ثمر لا يصلح إلا للحرق ، فقد كان نبينا يحيى مبارك اسمه يضع الفأس على أصل الشجر وهو يصرخ... كل شجرة لا تأتي بثمر جيد تقطع وتلقى في النار.

الخالص هو الصالح هو الصادق الراسخ في التقوى والكابح لجماح نفسه ، ونقي القلب والمتحكم في الإحساس والمتفاني في عمل الخير ، هو القريب من الله ، طوبى لمن عرف الصلاح وسعى إليه (الكنزا ربا) ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ، فكل عمل لا يتصف بالإخلاص للحي العظيم ملك النور الواحد الأحد فهو مردود عليه ، فالحي العظيم لا ينظر إلى ظاهر العبد ، بل ينظر إلى ما في قلبه من النوايا والمقاصد ، لأن الأعمال بالنيات ، والفضائل بالمقاصد.

والحي العظيم لا يقبل العمل إلا خالصًا لوجهه تعالى ، لأن الإخلاص سر من أسرار النور ، فنعمته أن تظهر ينابيع الحكمة من قلب المخلص على لسانه ، فيا نفس اخلصي تخلصي ، فما من شيء شديد عليك سوى الإخلاص ، لأنه ليس لك فيه نصيب ، لكن إخلاصك يقطع عنك كثرة الوساوس والرياء ، طوبى للمخلص الصادق لأنه تعلم السيطرة على شهواته وغضبه حتى وإن كان في اسار الجسد فقد جعل من المعرفة نار تلتهم الخبائث وقطع قيود الشك التي تغل القلب بسيف الحكمة ، واستطاع فك الوثاق الذي خلفه الجهل ، وجعل الهناء الكامل يترعرع في قلبه المطمئن ، وفي نفسه السالمة من الشهوة والمطهرة من الإساءة ، فهو لا يكره أيًا من الأحياء ، رحيم خال من العجب ومن حب الذات ، لا يغيره الخير

ولا الشر، صبور قنوع ثابت في الإيمان، سيد نفسه وصادق في الوعد، فهو لا يتوانى في بذل الروح في سبيل الواجب. فقد سخر جسده في خدمة عقله وضحى بقواه البشرية من أجل العمل المجدي ينعم بالخير إذا نضجت أعماله الصالحة، صنع لنفسه جزيرة لا يكتسحها طوفان، وفعل الخير يجعله مبتهجًا في هذه الدنيا، ومبتهجًا في الآخرة، إنه سعيد في الدارين يتهلل ويفرح عندما يرى نتائج أفعاله الحسنة.

الصدق سيف الله، ما وضع على شيء إلا قطعه، فمن يعمر باطنه بالصدق والإخلاص تجري حركاته وسكناته على حسب ما في قلبه، فيظهر الصدق في أقواله وأعماله وأحواله، فعليك أيها المندائي بالصدق في عهدك لترتقي إلى عالم النور، فكل من فهم عقيدة النور لازم الصدق في أقواله وأخلص في أعماله وصفا في أحواله، وعد من الأبرار وحجز مكاناً في بيت الكمال، فإن كنت أيها المندائي تجهل ذلك؛ فعليك ملازمة أهل الصدق لتستفيد من حالهم وتسترشد من صدقهم، سارع تهتدي إلى البر فإنه يهديك إلى الجنة.

دائمًا العقيدة الروحانية تستمر وتحافظ على البقاء وتطور الجماعة التي تؤمن بها، لأنها عقيدة ربانية توحيدية ولأن المؤمنين بها ينظرون بأمل إلى الحياة الآخروية، أي أنهم يعيشون حياتين، حياتهم الحالية في هذه الدنيا، ولهم أمل كبير في حياة ثانية أبدية في عالم الأنوار (الجنة)... أما العقائد المادية فهم لهم دنيا واحدة يعيشوها قابلة للفناء، حتى الجماعات التي تؤمن بهذه العقائد المادية سرعان ما تتلاشى وتندثر ولا يبقى منها سوى اسمها.

وأن العقائد الفعالة المؤمنة بوحدانية الخالق تبني الحضارة الإنسانية وتطورها، لكن هذا لا يعني أن العقائد المادية لا تستطيع بناء قوة ودولة ومراكز نفوذ، لكنها سرعان ما تضمحل وتذوب (حضارات سادت ثم بادت).

من هنا جاء ثبات وديمومة العقيدة المندائية التي يؤمن بها الصابئة المندائيون أولاً لأنها توحيدية تعظم الحي العظيم الواحد الأحد، وثانيًا لأنها عقيدة روحانية

محقة تؤمن بالإيمان العميق (الناصوراثا) ، لهذا تجد الصابئة المندائيين عبر التاريخ لم تنشأ دولة أو إمارة أو جيش أو ملك لأنهم يؤمنون أن هذه الدنيا فانية وأن الدنيا في الآخرة هي الباقية، يعيشون فيها سعداء دون أوجاع ولا شيخوخة ولا موت ثاني.

والعقائد كما تعلم تختلف بطريق إيمانها بعقيدتها ؛ فهناك من آمن بالحيوانات وبالنباتات وبالكواكب والنجوم ، وهناك من آمن بالملوك والكهنة والأبطال ، وهناك من آمن بإله واحد لا شريك له في ملكه ، مثل الأديان التوحيدية (الصابئة ، اليهود ، المسيحية ، الإسلام) ، وأرسل لهم خالقهم الواحد أحد الرسل وأنزل عليهم الكتب المقدسة...

ونحن في هذا الكتاب نود مخلصين أن نوضِّح شيئًا مفيدًا عن العقيدة المندائية، تاريخيًا ودينيًا وإيمانيًا وتوحيدًا ، لكونها جذر التوحيد الأول ، وأن كل الأديان تأثرت بها كما هي الأخرى تأثرت بالعقائد الأخرى... وهذا ما يسمى بتلاقح الثقافات التي تزدهر ، خاصة في مكان واحد مثل بلاد وادي الرافدين.

وقد يلاحظ عدد من الباحثين وجود أوجه شبه بين تلك العقائد وهذا أمر طبيعي أن تؤثر العقيدة بما جاورها من عقائد ، وتتأثر هذه العقائد بتلك العقيدة ، ولكن لكل عقيدة سماتها وأسسها ونبيها ومن دعا إليها ومن بشر بها ، وهي بطبيعة الحال تختلف في جوهرها عن العقائد الأخرى رغم أن الكثير منها يشترك بعبادة الخالق رغم اختلاف النظرة من أُمة عن أُمة أخرى.

تعميد السيد المسيح :

كثر الحديث وما زال يكثر يوم بعد يوم عن ديانة السيد المسيح (ع) قبل أن يبشر بالديانة المسيحية...

إن النصوص المندائية الآتية هي خير دليل وخير وثيقة تثبت وبما لا يقبل التشكيك أن السيد المسيح لم يكن إلا رجل مندائي ، تعمّد بعماد الماء الحي والذي لا يزال المسيحيون وحتى اللحظة هذه يتبركون به عند دخول الكنائس أو في القداسات ، ومن الرموز المندائية والتي ما يزال المسيحيون يمارسونه التناول ؛ حينما يضع رجال الدين المسيحي (قطعة من خبز فطير) في فم المتناول ، وهي في حقيقة الأمر {صا} والتي يحضّرها رجال ديننا الأفاضل أثناء مراسيم الزواج بهثا ؛ فالتعميد (الصباغة) والتناول (البهثا) ما زالتا علامتين من علامات الديانة المندائية ، وقد يكون هناك الكثير الذي لم نلتفت إليه باعتباره شيء ليس ذي بال.

مواعظ وتعاليم يحيى بن زكريا ؛ كتاب ووثيقة يصف وبشكل واضح لا لبس فيه [كيفيّة] تعميد السيد المسيح (ع) ، والذي غدت بعد ذلك ملايين البشر تدين بديانته ، وهؤلاء يجهلون أو يتجاهلون من قام بالتعميد ، ليس بخاف على أحد أن اليصابات (أنشبي) والدة نبينا العظيم ، و(مريم) والدة السيد المسيح عليهم السلام جميعًا أختان شقيقتان ، وهما أمان لنبيين اختارهما الحي الأزلي ووضعهما في رحميهما بمعجزة من لدنه ؛ فأولاهما أنشبي في الثامنة والثمانين حينما حملت بيهيا يهانا ، مبروخ ومطروس بأمر من الواحد الأحد : (أقول لكم : هل هناك من مات ثم عاد ثانية حتى تلد أنشبي مولود؟ هل هناك من أصيب بالعمى ثم أبصر ، أو كان كسيحًا ثم قام حتى تلد أنشبي مولود ؟ منذ اثنين وعشرين سنة لم أقترب من زوجتي...).

ولا شك في كلام هذا الشيخ الجليل ما إلا محض صدق ؛ فإذا كل الأمور كانت كما وصف بهذا الشكل فلا بد أن أمر خارق للطبيعة قد حصل ! ويذكر لنا

القرآن الكريم هذه الحاثة الربانية : بسم الله الرحمن الرحيم { يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا }[1].

وآية أخرى يؤكد فيها رب العزة الحدث العظيم، فيقول سبحانه وتعالى: بسم الله الرحمن الرحيم { فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ }[2].

إن الأحلام والرؤى التي انتابت اليهود قبل ولادة نبينا العظيم لتؤكد هذه المعجزة {في سماء الخلد ذكر اسم مولود ، انجلى سرٌ في أورشليم... ضجيج وأصداء مخاض تعلن ولادة طفل في أورشليم...}.

أما الأخت الثانية فهي عذراء بتول ما مسَّها بشر ، لكن أمر من الله صدر فحملت مريم العذراء، وكان عيسى الذي اختاره المولى القدير ليكون نبيًا كابن خالته ، عند استقراء نصوص {دراشا يهيا} نعرف أن عيسى (ع) كان ملازمًا وتلميذًا لنبينا ، ومنه أخذ الحكمة والمعرفة {تكلم المسيح مخاطبًا يحيى في أورشليم : يا يحيى أستحلفك بالحي العظيم وبملاك الأحد الوقور وبالدرب الذي سلكه المختارون ، حدثني ، ماذا تشبه سفينة صوريين ؟ أخبرني عن النفس كيف تغادر الجسد وبماذا تكون متلفعة ، وماذا تشبه وهي داخل الجسد الفاني ؟ ألا تشبه الدم الذي يمنع الدفء للجسد المغلق ؟ أو كأنها الريح الذي يعيقها الجبل ؟ أو كالندى على أوراق الأشجار ، وما يلبث أن يتبخر ويتلاشى ، لكن وبطريقة المعلم الذي اختاره الله ليكون عارفًا بالخبايا وما تضم الحنايا قال يحيى بصوتٍ عال : لا تشبه الدم الذي يدفئ الجسم ، ولا تشبه الريح التي تعيقها الجبال ، ولا تشبه الندى الذي يتكون على الأوراق ؛ يتبخر ويزول... النفس محتجبة تدخل خفية إلى الجسد الفاني ، وعندما يحين الأجل تنسل خفية متلفعة برداء النور}...

١- القرآن الكريم : سورة مريم-لآلآية ٧.
٢- القرآن الكريم : سورة آل عمران-لآلآية ٣٩.

إنه لوصف يعجز البشر الإتيان بمثله لأنه صادر عن نبي ، في النص الخاص بالتعميد نجد أن عيسى المسيح يطلب من النبي يحيى أن يعمّده تعميدًا مندائيًا ، إلا أن يوحنا يرفض ذلك لأسباب نجهلها نحن البشر ، لنقرأ من النص السابع والعشرين {يا يحيى اصبغني بصباغتك وانطق الاسم الذي تذكره عليّ ، وسأذكر صنيعك هذا في وثيقة، وإن لم أتتلمذ ؛ الغِ اسمي من سجلك} بيد أن النبي لم يكن واثقًا من قول المسيح فيقول: { كيف أصبغك وقد هزأت بكهنة اليهود وأخزيتهم وقد قطعت النسل والحمل وأنت مسجل في صحيفة موسى نشرت في أورشليم ، قال عيسى : لم أهزأ بالرجال الكهنة وإلا سأموت مرتين}.

لذا وكمرحلة أخرى يبدأ النبي يحيى بطرح عدة بديهيات يختبر من خلالها كيف سيكون الرد وكيف تفسّر تلكم البديهيات {قال يحيى : الأخرس لا يصبح معلم ، والأعمى لا يكتب رسالة ، وبيت الخراب لا يتألق ، الأرملة لا تصبح عروس ، والماء النتن لا يتضوع طيب ، والحصى لا يترطب بالزيت...}، بيد أن التلميذ أراد أن يبرهن لأستاذه أنه أهل لتفسير ما يطلب منه وأن تلك البديهيات ليست بالمستحيلة وهو جدير بأن يفسِّرها بما يجعله أهل ليصبغ صباغة مندائية.

{قال عيسى : الأخرس يصبح معلم والأعمى يكتب رسالة ؛ وبيت الخراب يتألق ، الأرملة تصبح عروس ، والماء النتن يتضوع طيب والحصى يترطب بالزيت... قال يحيى إلى عيسى أوضح ذلك... الأخرس يصبح معلم ، المولود الذي يأتي ينمو ويتكلم ويصبح كبير ويمنح الزكاة ويكسب الأجر ، الأعمى يكتب رسالة... ابن السوء إذا حسنت أخلاقه وترك الزنا والسرقة وآمن بالحي العظيم ، بيت الخراب يتألق ، إذا رقّ ابن الحياة وهجر القلعة والفراش وبنى بيت عند الشاطيء وجعل له بابين ، فمن جاء من سهل فتح له باب ومن جاء من علٍ فتح له الباب الآخر وقابله ، فإن طلب طعام أعد له المائدة بالحق ، وإن طلب ماء سقاه ، وإن أراد النوم جهّز له فراش ، وإن طلب الرحيل أرشده إلى طريق الحق والإيمان وارتقى متطلع إلى موضع النور ، الأرملة تصبح عروس... عروسٌ في شرخ الشباب... احتجبت واعتزلت من أجل رعاية ابنها ، وكلما خرجت لم يغادر

نظرها وجه زوجها ، الماء الآسن يتضوع طيب : فتاة عانية متحررة بلا قيود أصبحت أم ، صعدت قاصدة المدينة ، ولم ترفع الوشاح عن وجهها ، الحصى يترطب بالزيت : الزنديق الذي هبط من الجبل تاركًا السحر والشعوذة وآمن بالحي العظيم وآوى اليتيم... يا يحيى اصبغني بصباغتك وانطق الاسم الذي تذكره عليّ فسوف أذكر هذا لك في وثيقة ، فأنت مسؤول عن خطاياك وأنا مسؤول عن خطاياي).

حينذاك هبط وحي من الحي الأزلي يدعو النبي يحيى لصباغة عيسى (يا يحيى ، اصبغ المسيح ، اصبغه في يردنا ، واصعد ضفة النهر حيث روح القدس تمثلت في حمامة رسمت صليبًا).

فوق يردنا ولونت الماء بألوان متعددة وقالت ليردنا : أنت قدستني وقدست أبنائي... فالماء الذي اصطبغ به المسيح أصبح له ماء مقدس، والخبز المبارك الذي تناوله أصبح له روح للقدس، والماء الذي شرب منه أضحى قربان، هكذا وبأمر من الحي الأزلي تعمّد السيد المسيح عمادًا مندائيًا؛ فلقد اصطبغ وتناول البهثا وشرب الممبوها وبذا لا يمكن إلا أن يكون مندائيًا خالصًا.

لكن قبل الانتهاء من هذا الموضوع أرجو أن ألفت النظر إلى ما ورد في النص السابق وهي إشارة لا أستطيع إغفالها أو التغاضي عنها؛ ألا وهي قول النبي يحيى (مبروخ ومطروس) لعيسى المسيح (وقد قطعت النسل والحمل) وهي لا شك في أنها تحمل إشارة واضحة إلى مبدأ (الرهبنة) الذي اعتمده المسيح والذي يخالف الشريعة الربانية الداعية إلى التناسل الطبيعي، ومن هنا جاء رد المسيح (فأنت مسؤول عن خطاياك وأنا مسؤول عن خطاياي).

والملاحظ كذلك أن نبينا كان قد اعتمد هذا المبدأ أول الأمر كيلا يضطر إلى عدم القيام بواجباته الدينية أمام رب العباد؛ لاعتقاده بأن الزوجة يمكن أن تبعده عما نذر نفسه إليه فنراه يقول {أخشى إن تزوجت وجاء الليل وحان النوم واقتربت منها ؛ أن أكف عن أداء طقوسي السماوية وأنسى خالقي ، أخشى إذا اقتربت منها أن انقطع عن أداء صلاتي في أوقاتها... بينما كان يحيى

يفكر في هذا جاءته رسالة من السماء تقول : يا يحيى اتخذ لك زوجة ولتقر نفسًا ولا تغشاها يومي الأحد والخميس ، واحذر كل ما هو باطل في هذه الدنيا الزائلة}.

وبذا تحرر نبينا الكريم مما اعتبره عائقًا لزواجه، فتزوج بعد ذلك وكانت زوجه {أنهر} قد حملت أول الأمر ب(هندام وشارات)، وفي الثاني (بهرام ورهيمات هيي)، وفي الحمل الثالث (أنصاب وسام وأنهر زيوا وشار)، قال يحيى لزوجته أنهر : {أنتِ علمي بناتك عدم الخنوع وأنا أعلّم أولادي وأوصيهم أن لا يكونوا منغلقين}.

حقًا لقد تحقق كلام نبينا العظيم ، فلا نجد حتى هذه اللحظة مندائية خانعة خاضعة، ولا مندائي منطوي منغلق على ذاته، بل فرح مستبشر بأن الحياة ما زالت جديرة بأن تُعاش!.